HOLY QURAN
Vol.2026, **pp.** 150–157
DOI: https://doi.org/10.70470/HOLYQURAN/2026/013 ; ISSN: 3078-3968

The Rhetorical Miracle in The Qur'anic Context (A Comparative Analytical Study in Light of Traditional and Linguistic Rhetorical Exegesis)

الإعجاز البياني في السِّياق القرآني (دراسة تحليلية مقارنة في ضوء التفاسير الأثرية واللغوية البلاغية)

Mohamed Mohamed Tolba Said[1,*], Abd Rauf Hassan [1] ,
[1] *Faculty of Modern Languages and Communication (FBMK), University of Putra Malaysia (UPM), Malaysia*

محمد محمد طُلبه سعيد [١،*]، **عبد الرؤوف حسن** [١]،
[١] كلية اللغات الحديثة والاتصال، جامعة بُترا ماليزيا، ماليزيا

ABSTRACT

This academic research aims to examines, analyzes and compare the rhetorical miracle in the Quranic context of Surahs Al-Ikhlas, Al-Falaq and An-Nas in the light of Traditional and Linguistic rhetorical Exegesis of the Holy Quran such as those of Al-Tabari, Al-Zamakhshari, and Ibn Kathir. This is achieved through a meticulous analysis of the structure of vocabulary, the cohesion and coherence of verses, and their phrasing in establishing the doctrine of monotheism and achieving psychological and spiritual protection. This research adopts a descriptive, analytical, and deductive methodology, combining rhetorical analysis with analytical interpretation. It focuses on suggestive meaning rather than traditional interpretation, and it integrates the foundations of traditional interpretation as presented by Imam Al-Tabari with the rhetorical interpretation of the linguistic and rhetorical structure as presented by Imams Al-Zamakhshari and Ibn Kathir. This research concluded that Imam Ibn Kathir's interpretive choices from the traditional interpretation of Al-Tabari and the Exegesis of Al-Zamakhshari, revealed a unique phonetic and semantic harmony linking the oneness of Allah the Creator in Surah al-Ikhlas, the supplication for refuge in Him from cosmic evils in Surah al-Falaq, and the psychological evils in Surah An-Nas. These short surahs represent the pinnacle of miraculous conciseness of linguistic formulation and functional expression that connects the word to its doctrinal meaning and Islamic legal intent of occurs within a context where vocabulary interacts phonetically and semantically to achieve profound pragmatic and doctrinal functions that humanity is incapable of imitating.

الخلاصة

يهدف هذا البحث العلمي إلى كشف وتحليل ومقارنة وجوه الإعجاز البياني في السِّياق القرآني لسُوَر الإخلاص والفلق والنَّاس، في ضوء التفاسير الأثرية واللغوية كتفسير الطبري والزمخشري وابن كثير، وذلك من خلال تحليل دقيق لنَظم المفردات وتناسب الآيات(cohesion and coherence) ، وفواصلها في ترسيخ عقيدة التوحيد وتحقيق الوقاية النفسية والروحية. يتبنى هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي الاستنباطي، الذي يجمع بين التحليل البياني والتفسير التحليلي، ويركز على "الدِّلالة الإيحائية" بدلاً من التفسير التقليدي، ويزاوج بين مرتكزات التفسير الأثري عند الإمام الطبري، والتفسير البياني للنَّظم اللغوي البلاغي لدي الإمامين الزمخشري وابن كثير. وقد توصل البحث إلى أن اختيارات الإمام ابن كثير التفسيرية من التفسير بالمأثور من الطبري والتفسير البياني من الزمخشري، كشفت عن تناسق صوتي ودلالي فريد يربط بين وحدانية الله الخالق في سورة الإخلاص، والالتجاء إليه من الشرور الكونية في سورة الفلق، والشرور النفسية في سورة النَّاس. وأن هذه السُّوَر القصيرة تمثل ذروة الإيجاز المعجز في الصياغة اللغوية والبيان الوظيفي الذي يربط اللفظ بالمعنى العَقدي والمقصد الشرعي، في سياق تتفاعل فيه المفردات ضمن سياق صوتي ودلالي؛ لتحقيق وظائف تداولية وعَقدية عميقة تعجز البشرية عن محاكاتها.

Keywords

الكلمات المفتاحية

Rhetorical Miracle, Qur'anic Context, Coherence between Verses and Surahs, Surah Al-Ikhlas, Surah Al-Falaq, Surah An-Nas,
الإعجاز البياني، السِّياق القرآني، تناسب الآيات والسُّوَر، سورة الإخلاص، سورة الفلق، سورة النَّاس

Received	Accepted	Published online
استلام البحث	قبول النشر	النشر الالكتروني
14/05/2026	09/07/2026	06/08/2026

*Corresponding author 1profsaid@gmail.com

١. مقدمة

لا شك أنَّ الإعجاز البياني يُمثل جوهر الإعجاز القرآني، وهو ما تحدَّى الله عز وجل به أرباب الفصاحة والبلاغة فعجزوا أن يأتوا بمثله أو عشر سور أو بسورة من مثله؛ حيث تظهر عظمة النظم، ودقة السياق، وبراعة التأليف في أقصر السور كما تظهر في أطولها.

ويُقصَد بالإعجاز البياني: هي تلك الأساليب المتنوعة التي وَجَّه الله عز وجل بها كلامه إلى عباده المكلفين، شاملة؛ النداء، والأمر، والنهي، والاستفهام، والالتفات، والأمثال، وغيرها، ويشمل هذا الإعجاز جودة التركيب، والتناسب الدقيق بين المعنى والمبنى.

وتكمن أهمية دراسة أوجه الإعجاز البياني: في فهم بلاغة النَّص القرآني، وكيفية تأثير هذه الأساليب في عقول المخاطَبين وقلوبهم وأنفُسهم.

وأما السياق القرآني فيُقصَد به القرينة الأساسية لتحديد المعنى المراد؛ لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً. ويشمل السياق: النص القرآني الداخلي من ترابط الآيات وتناسب السُوَر، بالإضافة إلى السياق الخارجي المتمثل في أسباب النزول وسياق الحال، وبذلك يكون السياق القرآني وحدة متكاملة لا تقبل التجزئة في التفسير مما يوجب قراءة الآية في إطار سورتها وسياقها العام، لتفسيرها تفسيراً صحيحاً وتحديد المعنى المراد بقدر الطاقة البشرية.

ويسعى هذا البحث إلى دراسة الإعجاز البياني في السياق القرآني من خلال تحليل سُوَر الإخلاص والفلق والنَّاس، كنموذج بديع للإيجاز والتناسب، والجمال النَّظمي الذي يجمع بين التجريد العقدي والواقع العملي في آنٍ واحدٍ، في ضوء التفاسير الأثرية واللغوية البلاغية؛ لكشف التوافق بين دقة التفسير الأثري وجماليات النَّظم القرآني.

ويُعَدُّ تفسير "جامع البيان في تفسير آي القرآن" للإمام الطبري (ت310هـ)، وتفسير "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" للإمام الزمخشري (ت538هـ)، و"تفسير القرآن العظيم" للإمام ابن كثير (ت774هـ)، مادة خصبة لاستنباط هذه اللطائف البيانية نظراً لاعتمادهم على النقل المسند واللغة الرصينة التي تبرز الإعجاز البياني في السياق القرآني، المتمثل في بلاغة النَّظم وتناسق الألفاظ ودقة المعاني، وبذلك يثبت الكمال اللغوي للقرآن الكريم وعجز البشر عن الإتيان بمثل نظمه وبيانه المعجز.

وقد أثنى الدكتور محمد حسين الذهبي على الإمام الطبري وتفسيره ووصفه بأنه إمام المفسرين لمن جاء بعده لالتزامه بالمنهج الأثري، بل اعتبره أعظم مفسر في التفسير بالمأثور، حيث أثنى على منهجه في ذكر الروايات بأسانيدها ونقدها والترجيح بينها، والجمع بين التفسير بالمأثور واللغة والاجتهاد المنضبط[١].

وأشاد بالإمام الزمخشري وتفسيره في براعته اللغوية والبيانية الفائقة واعتبره أفضل كتاب كشف عن بلاغة القرآن الكريم وإعجازه اللغوي، ولكن انتقده بسبب نزعته الاعتزالية وشدة تعصبه للمعتزلة ودس آرائهم في تفسيره بأسلوب خفي لا يدركه إلا المتخصصون، وحذر من استدلالاته العقدية، ووصفه بالداعية للمذهب المعتزلي[٢].

كما مدح الذهبي الإمامَ ابن كثير وتفسيره لكونه أفضل تفسير بالمأثور بعد تفسير الإمام الطبري، وتميز عنه بنقد الأسانيد وتنقية التفسير من الإسرائيليات الضعيفة والموضوعة وتحذيره المستمر منها، مع التركيز على أصح الروايات لتفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن السُنة والثابت من أقوال الصحابة والتابعين[٣].

١.١ مشكلة البحث:

تكمن مشكلة هذا البحث في استجلاء الإعجاز البياني في السياق القرآني للسُوَر الثلاث الإخلاص والفلق والنَّاس، وكيفية توظيف السياق القرآني للتدليل على وجوه الإعجاز البياني فيها، والربط بين بنية السُورة وموضوعها العَقدي والسُلوكي في حياة المسلمين وأثره في استقرار مجتمعاتهم.

١.٢ أهداف البحث:

أولاً: الكشف عن اللمسات البيانية التي استخرجها الأئمة الثلاثة الطبري والزمخشري وابن كثير عند تفسيرهم لسُوَر الإخلاص والفلق والنَّاس.

ثانياً: بيان أثر السياق في توجيه المعنى التفسيري للسُوَر الثلاث عند هؤلاء الأئمة، للتدليل على وجوه الإعجاز البياني فيها.

ثالثاً: إبراز التكامل اللغوي بين التفسير بالمأثور والتحليل اللغوي البلاغي في تفاسيرهم الثلاث.

١.٣ محتويات البحث

وباستقراء التفاسير الثلاثة يمكن استجلاء الإعجاز البياني في السياق القرآني لسُوَر الإخلاص والفلق والنَّاس، وتحليلها، والمقارنة بينها، في الثلاثة محاور الآتية:

المحور الأول: الإعجاز البياني في السياق القرآني لسُورة الإخلاص.

المحور الثاني: الإعجاز البياني في السياق القرآني لسورَتي الفلق والنَّاس.

المحور الثالث: الإعجاز البياني في الوحدة العضوية لسياق الختم القرآني بسُوَر الإخلاص والفلق والنَّاس.

---

[١] الذهبي، المجلد ١، ص ٢٠٥-٢٠٧

[٢] الذهبي، المجلد ١، ص ٤٢٩-٤٣١

[٣] الذهبي، المجلد ١، ص ٢٤٢-٢٤٤

النتائج: نختم هذا البحث ببيان أوجه الإعجاز البياني في السياق القرآني لسُوَر الإخلاص والفلق والنَّاس، وأثر هذا السياق في توجيه المعنى عند الأئمة الثلاثة الطبري والزمخشري وابن كثير في تفاسيرهم.

٢. المحور الأول: الإعجاز البياني في السِّياق القرآني لسُورة الإخلاص

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٢) لم يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ (٣) وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ (٤)﴾[١]

٢.١ الإعجاز البياني في دقة النَّظم وتجريد العقيدة في تفسير الإمامين الطبري وابن كثير

اعتمد الإمام ابن كثير في تفسيره لسورة الإخلاص على مادة علمية غزيرة استمدها من تفسير الإمام الطبري، مع إضافة لمسته النقدية والتحليلية، ويظهر هذا التأثر في عدة جوانب رئيسة، وهي:

سبب نزول سورة الإخلاص: نقل الإمام ابن كثير الرواية المشهورة عن أُبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: "انسب لنا ربك"، فأنزل الله هذه السورة. وهي الرواية التي بدأ بها الإمام الطبري تفسيره لهذه السورة[٢] [٣].

كما ركز الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه السورة على نفي التعدد والتركيب؛ حيث تمثل سورة الإخلاص أعلى درجات التوحيد وإعجاز التجريد بأقل عدد من الكلمات، وهو ما يظهر إعجازياً في: التنزه الدلالي وخصوصية اللفظ القرآني باستخدام "قل" للتوكيد، و"أحد" بدلاً من "واحد" لأن لفظ "أحد" أكمل من لفظ "واحد" فلا يُطلق في الإثبات إلا على الله عز وجل، ولنفي المجانسة مطلقاً، وليدل على الانفراد الذي لا يقبل التجزئة[٤].

وفي تعريف "الصمد": سار الإمام ابن كثير على نهج الإمام الطبري في سرد أقوال الأئمة: ابن عباس ومجاهد والحسن البصري، واتفق كلاهما على نقل معنيين لكلمة "الصمد": الأول: السيد الذي قد كمل سُؤدده والشريف الذي قد كمل في شرفه، والذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، والمعنى الثاني: "الصمد" المصمت الذي لا جوف له [٥] [٦] .

وبذلك قد فسَّر الإمام ابن كثير لفظ "الصمد" بوصفه الجامع لصفات السُّؤدد، وهو بذلك يُظهر الإعجاز البياني في كلمة "الصمد"؛ بأنها حوت المعاني العقدية المقصود في الحوائج، المستغني عن غيره، وهو إعجاز في حشد معانٍ عقائدية كبرى في لفظة مفردة.

وإضافة إلى ذلك أورد الإمام ابن كثير قول الربيع بن أنس، الذي ذكره الإمام الطبري، بأن "الصمد" هو الذي لم يلد ولم يولد، واستدل على ذلك منطقياً بأن كل من يولد سيموت، وكل من يموت سيورث، والله سبحانه وتعالى لا يموت ولا يورث، كما أشار إلى الإيجاز في حذف المسند إليه في "لم يلد ولم يولد"، يضفي شمولية مطلقة للتمثيل البياني [٧] [٨].

٢.٢ الإشارات والتوجيهات اللغوية لدى الإمامين الزمخشري وابن كثير

تميز الإمام الزمخشري في تفسيره بدقة التفريق اللغوي بين "الواحد" و"الأحد" من حيث الاستعمال اللغوي والدلالة العَقدية، في قوله تعالى "قل هو الله أحد"؛ فبين أن "الأحد" أبلغ في نفي الشريك والعدد من "الواحد"؛ باعتبار أن "أحد" يفيد العموم والاستغراق ولا يُثنى ولا يُجمع في النفي والإثبات، وهو أبلغ في الدلالة على الوحدانية المطلقة التي لا تقبل التجزئة أو التعدد ذاتاً وصفاتاً [٩].

وقد تبنى الإمام ابن كثير هذا التقسيم اللغوي في تفسيره، فأوضح أن "الأحد" أي الواحد الأحد الذي لا نظير له، ولا وزير، ولا شبيه، ولا عديل، ولا يُطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله تعالى؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله[١٠].

كما ورد في تفسير الإمام الزمخشري أن "هو" ضمير الشأن والقصة وأنها لتعظيم الأمر وتفخيمه، ومحله الرفع على الابتداء، والجملة بعده خبر له[١١].

---

[١] سورة الإخلاص ١-٤.
[٢] ابن كثير، المجلد ١٤، ص ٥١٥، ٢٠٠٠.
[٣] الطبري، المجلد ٢٤، ص ٧٣١ ، ٢٠٠١.
[٤] ابن كثير، المجلد ١٤، ص ٥٤٦، ٢٠٠٠.
[٥] الطبري، المجلد ٢٤، ص ٧٣١-٧٣٥ ، ٢٠٠١.
[٦] ابن كثير، المجلد ١٤، ص ٥١٩-٥٢٠، ٢٠٠٠.
[٧] الطبري، المجلد ٢٤، ص ٧٣١-٧٣٢ ، ٢٠٠١.
[٨] ابن كثير، المجلد ١٤، ص ٥١٦، ٢٠٠٠.
[٩] الزمخشري، المجلد ٤، ص ٨١٣، ١٩٩٧.
[١٠] ابن كثير، المجلد ١٤، ص٥٤٦، ٢٠٠٠.
[١١] الزمخشري، المجلد ٤، ص ٨٢١، ١٩٩٧.

وقد وافق الإمامُ ابن كثير الإمامَ الزمخشري في هذا التوجيه النحوي، حيث أشار إلى أن المعنى: الشأن العظيم والمطلب المهم هو أن الله أحد. وهو نفس المنطق البياني الذي سلكه الإمام الزمخشري لتفخيم شأن المقرر به [١].

وفسَّر الإمام الزمخشري "الصمد" لغوياً بأنه السيد المطاع الذي لا يقضى دونه الأمر، وأبرز الإمام ابن كثير دلالة "الصمد" في أنه السيد الذي كمل في السُؤدد، ولكنه أضاف عليها الروايات المأثورة التي لم يعتني بها الإمام الزمخشري كثيراً، لتأكيد المعنى العَقدي بأن "الصمد" الذي لا جوف له أو الباقي بعد فناء خلقه، وأن الله عز وجل هو المقصود في الحوائج، وربطها بالبيان النحوي لأسماء الله عز وجل، مما يظهر أن النظم اللغوي يُسخَّر لمعاني التنزيه. نقل الإمام ابن كثير بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "يعني الذي صمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم. وعن عكرمة: الذي لا يخرج منه شيء، ولم يطعم" [٢] [٣].

وبذلك يظهر الإعجاز البياني في السياق القرآني الذي حصر صفات الجلال والكمال، ونفي صفات النقص والتشبيه والتمثيل، في آيات معدودات؛ مما يمثل أوجز وأبلغ أسلوب في تقرير التوحيد وإثبات الوحدانية.

٢.٣ الموقف العَقدي لدى الإمام ابن كثير والرد على الإمام الزمخشري المعتزلي

استخدم الإمام الزمخشري سورة الإخلاص في نفي الصفات التي تقتضي التشبيه أو التعدد مثل الولد والشرك والنظير، بناء على عقيدته الاعتزالية في التنزيه المطلق لله تعالى، الذي يعني تعطيل بعض الصفات، فأوضح عند تفسيره لقوله تعالى: "قل هو الله أحد" أن الأحد هو الذي لا يتجزأ ولا يصح عليه الانقسام، ونفى المعنى الجسماني والمادية مؤكداً أن ذاته تعالى لا تشبه ذوات مستدلاً بذلك على نفي التشبيه والصفات التي تقتضي التعدد أو الحدوث وبذلك أثبت توحيد الذات ونفي التعدد والتركيب ، "الله الصمد" نفي الحاجة، والمقصود به المنزه عن صفات الأجسام والنقص، و "لم يلد ولم يولد" نفي المماثلة وتنزيه الله عن الصاحبة والولد ونفي كونه مادة أو ناتجاً عن غيره، "ولم يكن له كفؤاً أحد" نفي المماثلة والمشابهة في الذات والصفات والأفعال، مؤكداً أن ذاته تعالى لا تشبه الذوات، ولا يجوز عليها ما يجوز على المحدثات [٤].

بينما فسَّر الإمام ابن كثير الألفاظ القرآنية الدالة على الوحدانية والصمدية ونفي الولد والوالد والصاحبة والنظير، في سورة الإخلاص تفسيراً لغوياً يخدم التوحيد ويثبت صفات الكمال لله عز وجل، ويرد على شبهات المشبهة والمعطلة على حد سواء كما سبق، مستشهداً بالأحاديث النبوية التي تؤكد أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن الكريم؛ لاشتمالها على توحيد الأسماء والصفات [٥].

وقد أشار سليمان اللاحم إلى أن الإمام ابن كثير الدمشقي قد صرح بالنقل عن الإمام الزمخشري صاحب "الكشاف" في المسائل البيانية التي لا تتعلق بالعقيدة [٦]، وكان ينبه على دسائس الإمام الزمخشري الاعتزالية في ثنايا كلامه البلاغي، ويصفه في مواضع بصاحب الكشاف المعتزلي عند نقض آرائه في مسائل التوحيد ونفي الصفات أوالقدر أو رؤية الله عز وجل [٧].

٣. المحور الثاني: الإعجاز البياني في السياق القرآني لسورَتي الفلق والنَّاس

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ(١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ(٣) وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ(٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾ [٨].

وقال جل وعلا: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ (١) مَلِكِ ٱلنَّاسِ (٢) إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ (٣) مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ(٤) ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ(٥) مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ(٦) ﴾ [٩]

يتجلى الإعجاز البياني في السِّياق القرآني لسُورَتي الفلق والنَّاس فيما يلي:

٣.١ الإعجاز البياني في السِّياق القرآني لتوصيف الصُّورة اللغوية

---

[١] ابن كثير، المجلد ١٤، ص٥٢٧، ٢٠٠٠.
[٢] الزمخشري، المجلد ٤، ص ٨٢١، ١٩٩٧.
[٣] ابن كثير، المجلد ١٤، ص ٥١٦-٥٢٠، ٢٠٠٠.
[٤] الزمخشري، المجلد ٤، ص ٨١٨-٨١٩، ١٩٩٧.
[٥] ابن كثير، المجلد ١٤، ص ٥٢١-٥٣١، ٢٠٠٠.
[٦] اللاهيم، ص ١٦٣، ١٩٩٩.
[٧] اللاهيم، ص ٢١٢، ١٩٩٩.
[٨] سورة الفلق ١-٥.
[٩] سورة الناس ١-٦.

توصيف الصورة اللغوية للفلق: أورد الإمام ابن كثير الروايات الأخرى التي ذكرها الطبري مثل قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن "الفلق" هو سجن في جهنم، لكنه مال إلى ترجيح الطبري، حيث نقل الإمام ابن كثير عن الإمام الطبري أن الصواب في معنى "الفلق" هو الصبح، مستشهداً بقوله تعالى ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ [١] [٢] [٣] .

توصيف الصورة اللغوية في "غاسق": اعتمد الإمام ابن كثير على سياق الإمام الطبري في تفسيره "غاسق" أنه الليل إذا أظلم أو القمر أو النجم، لكنه تميز بالنقد الحديثي فعندما ذكر حديث النجم الغاسق، قال الإمام ابن كثير: وهذا حديث لا يصح رفعه، بينما أورد الإمام الطبري هذا الأثر دون تفصيل نقدي صريح [٤].

وأشار الإمام الزمخشري إلى أن تنكير "غاسق"؛ يفيد الشيوع والتعظيم، أي من شر ليل شديد الظلمة أو من شر كل غاسق [٥].

وقد افق ابن كثير على هذا الملمح البياني، لكنه أضاف مادة علمية أوسع بنقل آراء الصحابة في تحديد ماهية الغاسق، فذكر قول ابن عباس أنه الليل، وقول عائشة أنه القمر [٦].

توصيف الصورة اللغوية لعمل السواحر: أبدع الإمام الزمخشري في توصيف الصورة اللغوية لعمل السواحر، فذكر أن "النفاثات" هن اللواتي ينفثن في عُقد الخيوط حين يرقين عليها [٧].

وقد اعتمد الإمام ابن كثير هذا الوصف اللغوي والحسي الذي ذكره الإمام الزمخشري، لكنه تميز عنه بإيراد الأحاديث النبوية مثل حديث سحر لبيد بن الأعصم للنبي صلى الله عليه وسلم؛ ليؤكد وقوع السِّحر لحقيقة واقعية، بينما يميل الإمام الزمخشري المعتزلي لتأويل السِّحر بغير حقيقته أو التقليل من شأنه [٨].

توصيف الصورة اللغوية في "الوسواس الخنَّاس": فسر الإمام الزمخشري كلمة "الوسواس" بأنها من الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة، ووصف "الخناس" بأنه الذي يتأخر وينقبض إذا ذُكر الله عز وجل.

ونقل الإمام ابن كثير هذا التوجيه اللغوي للوسواس والخنَّاس، وأكد أن الشيطان يوسوس في قلب ابن آدم؛ فإذا ذكر الله خنس أي استتر وتأخر [٩] ، وهو ما يتطابق مع تحليل الإمام الزمخشري للفظ من الناحية الصرفية والبيانية.

٣.٢ الإعجاز البياني في السِّياق القرآني لاستجلاء دقة اختيار الألفاظ وتكرار ها وترتيبها في سياقها

دقة اختيار الألفاظ: إن دقة اختيار الألفاظ وتكرارها وترتيبها في سياقها يوضح تفوق النَّظم البياني في السياق القرآني لاستخدام كل مُفردة في موضعها المناسب بحيث لا تغني عنها غيرها في سياقها. وهذا ما ذكره الأئمة الثلاثة عند التمييز بين "النفاثات" في سورة الفلق، وهو شر مادي سحري، و"الوسواس" في سورة النَّاس، وهو شر معنوي نفسي، كما سبق بيانه.

دقة الترتيب في السياق في سورة الفلق: وذلك أن الاستعاذة بدأت بالعام من شر ما خلق، ثم خصصت شروراً خفية مثل "غاسق إذا وقب" وهو الليل إذا أظلم أو القمر، و"النفاثات في العقد" وهن السَّواحر؛ لبيان شدة خطرها [١٠] [١١].

تكرار كلمة "الناس": تساءل الإمام الزمخشري لماذا كررت كلمة "الناس" ثلاث مرات؟

وأجاب بأنها لزيادة البيان والتشريف للناس؛ ولأن كل آية مستقلة في معناها وصفتها؛ ولأن كل صفة "رب" و"ملك" و"إله" متعلقة بحال من أحوالهم [١٢].

وقد أورد ابن كثير هذا المعنى مبيناً أنه تعالى خص "الناس" بالربوبية والملك والألوهية مع أنه رب كل شيء؛ لأن المستعيذ هو الإنسان فكان ذلك تشريفاً له، وهو لمحة بيانية استفادها من الإمام الزمخشري في تفسيره.

كما بيَّن الإمام ابن كثير الفروق الدقيقة بين الاستعاذتين: التقابل البياني: في الفلق، الاستعاذة من شرور خارجية، مخلوقات غاسق نفاثات، بصفة واحدة رب الفلق. بينما في سورة الناس، الاستعاذة من شر داخلي الوسواس بثلاثة صفات رب ملك إله، مما يشير إلى عظم خطر وسوسة النفس والشيطان، ويتجلى واضحاً

---

[١] سورة الانعام، الآية ٩٦.
[٢] ابن كثير، المجلد ١٤، ص٥٢٧، ٢٠٠٠.
[٣] الطبري، المجلد ٢٤، ص ٧٤٨، ٢٠٠١.
[٤] ابن كثير، المجلد ١٤، ص٥٢١، ٢٠٠٠.
[٥] الزمخشري، المجلد ٤، ص ٨١٦، ١٩٩٧.
[٦] ابن كثير، المجلد ١٤، ص٥٢١، ٢٠٠٠.
[٧] الزمخشري، المجلد ٤، ص ٨٢٣، ١٩٩٧.
[٨] ابن كثير، المجلد ١٤، ص٥٣٦، ٢٠٠٠.
[٩] ابن كثير، المجلد ١٤، ص٦٤٣، ٢٠٠٠.
[١٠] ابن كثير، المجلد ١٤، ص٥٢١، ٢٠٠٠.
[١١] الزمخشري، المجلد ٤، ص ٨١٦، ١٩٩٧.
[١٢] الزمخشري، المجلد ٤، ص ٨١٦، ١٩٩٧.

في دقة التعبير ب "الخناس"؛ أنه وصف لحال الشيطان. وتخصيص الاستعاذة من "الجِنَّة والنَّاس"؛ لبيان مصادر الوسوسة الباطن من النفس، والظاهر من الخَلق [١].

٣.٣ الإعجاز الصوتي

أشار الإمام ابن كثير إلى ارتباط الألفاظ بمقتضى الحال، فجاءت فواصل الفلق قلقلة قوية، تناسب دفع الشرور الظاهرة، بينما الفواصل في الناس سينية مهموسة، تناسب خفاء الوسوسة. التعاظم الصوتي: استخدام حروف التفخيم في: الفلق، وقب، يصور الغموض والرهبة، بينما تتناسب حروف الهمس في سورة الناس: الوسواس، الخناس، مع طبيعة الوسوسة الخفية.

٣.٤ شمولية السِّياق وتدرجه في سُورة النَّاس

شمول لفظ "النَّاس" للجن؛ حيث تساءل الإمام الطبري هل يوسوس الشيطان للجن؟ ورجح أن الجن قد يطلق عليهم لفظ "ناس" في هذا السياق، استشهاداً بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِ﴾ [٢]. ونقل الإمام ابن كثير رأي الإمام الطبري في هذه المسألة، متبنياً توجيهه اللغوي والشرعي. كما أشار الإمام ابن كثير إلى ترتيب صفات الله المضافة إلى "النَّاس"؛ لمواجهة الوسوسة الداخلية. وهذه الصفات من صفات الله عز وجل الربوبية والملك والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة عبيد له. وأوضح الإعجاز البياني في وصف الشيطان بالخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس.

واختتمت السورة ببيان أن الوسوسة تكون من "الجِنَّة والنَّاس" في سورة الناس؛ لتأكيد أن الاستعاذة برب الناس ملكهم وإلههم هي الحصن الوحيد من هذا الشر الخفي، وبذلك يظهر الإعجاز البياني في السياق القرآني في استخدام الاستعاذة بالله سبحانه وتعالى من الشرور الكونية، كالليل، والغاسق، وحاسد، والنفاثات في سورة الفلق والاستعاذة من الوسواس الخناس؛ ليجمع بين كل أسباب الخوف الظاهرة والباطنة، كما عقَّب الإمام ابن كثير على الإعجاز البياني في المعوذتين بقوله: "ما تعوذ متعوذ بمثلهما –يقصد سورتي الفلق والنَّاس–، وسياق هاتين السورتين أبلغ ما يتوسل به إلى الله لدفع الضرر" [٣].

٤. المحور الثالث: الإعجاز البياني في الوحدة العضوية لسياق الختم القرآني بسُور الإخلاص والفلق والنَّاس

أشار الإمام ابن كثير إلى لفتة بيانية في الإعجاز البياني في السياق القرآني عن الوحدة العضوية في براعة الاستهلال بالفاتحة والختم القرآني بهذه السُوَر الثلاث في المصحف الشريف؛ حيث قال: "فقد بدأ القرآن بالحمد والطلب في سورة الفاتحة، وانتهى بالتوحيد –في سورة الإخلاص– والاستعاذة في هاتين السورتين – الفلق والنَّاس– فسبحان من بدا كلامه بالثناء والطلب وختمه بالتوحيد والهرب إليه من الشيطان الرجيم" [٤]. مما يخلق حلقة دائرية إعجازية تربط أول القرآن العظيم بآخره، ويؤكد على الإعجاز البياني في السياق القرآني.

٥. منهجية البحث

يتبنى هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي مع الاستعانة بآليات المنهج الاستنباطي؛ وذلك لأن طبيعة موضوع هذا البحث يجمع بين النص التراثي في تفسير سور الإخلاص والفلق والنَاس، والدراسة البلاغية المتمثلة في الإعجاز البياني، والتحليل السياقي، من خلال رصد أقوال الأئمة الطبري والزمخشري وابن كثير في تفاسيرهم، ثم تحليلها؛ لاستنباط القواعد البيانية التي اعتمدوا عليها في توضيح الإعجاز البياني في السياق القرآني للسُوَر الثلاث، على النحو الآتي:

١. المنهج الوصفي descriptive approach: لرصد وتجميع المادة العلمية من التفاسير الأثرية واللغوية، وقد اخترنا منها تفاسير الطبري والزمخشري وابن كثير، واستعراض كيفية تعامل هؤلاء الأئمة مع مفردات وتراكيب سور الإخلاص والفلق والناس؛ بهدف توصيف المصطلحات البيانية التي استخدموها، مثل: التقديم والتأخير، التناسب، ودلالة الألفاظ، وغيرها.
٢. المنهج التحليلي Analytical Approach: لفحص النصوص التفسيرية، واستخراج وجوه الإعجاز البياني التي أشاروا إليها؛ لبيان وتحليل لماذا اختاروا تفسيراً لغوياً دون غيره، وبذلك تنكشف العلاقة بين السياق والمضمون.
٣. المنهج الاستنباطي Deductive Approach: لاستخراج القواعد البيانية الكلية من خلال الجزئيات التي نثروها في تفاسيرهم؛ بُغية استنباط منهجهم في الوحدة الموضوعية للسُور الثلاث، وكيفية استدلالهم باللغة والسياق لتقرير مسائل العقيدة الإسلامية، ووسائل التحصين من الشرور الخارجية والداخلية التي

---

[١] ابن كثير، المجلد ١٤، ص٥٢١- ٦٤٣، ٢٠٠٠.
[٢] سورة الجن، الاية رقم ٦.
[٣] ابن كثير، المجلد ١٤، ص٥٢١، ٢٠٠٠.
[٤] ابن كثير، المجلد ١٤، ص٥٣٦، ٢٠٠٠.

تواجه الإنسان، معتمداً على: تحليل النظم القرآني من خلال دراسة كيفية ترابط الجُمل، والدلالة السياقية (contextual Semantics) من خلال تحليل المفردات في سياقها الخاص، والمقارنة البيانية: لإبراز الفروق الدقيقة بين المفردات القرآنية.

٦. نتائج البحث ومناقشتها

توصل هذا البحث إلى أن الاختيارات التفسيرية لهؤلاء الأئمة الثلاثة، الطبري والزمخشري وابن كثير، من التفسير بالمأثور والتفسير البياني، قد كشفت عن تناسق صوتي ودلالي فريد يربط بين وحدانية الله الخالق في سورة الإخلاص، والالتجاء إليه من الشرور الكونية في سورة الفلق، والشرور النفسية في سورة النَّاس.

وأن هذه السُّور القصيرة تمثل ذروة الإيجاز المعجز؛ حيث يمتد هذا الإيجاز إلى الصياغة اللغوية والبيان الوظيفي الذي يربط اللفظ بالمعنى العَقدي والمقصد الشرعي، في سياق تتفاعل فيه المفردات ضمن سياق صوتي ودلالي؛ لتحقيق الوظائف التداولية والعَقدية العميقة التي تعجز البشرية عن محاكاتها.

كما أثبت هذا البحث أن هؤلاء الأئمة الثلاثة كانوا يمتلكون حساً لغوياً وبلاغياً استطاعوا به إبراز الفروق البيانية الدقيقة؛ لاستجلاء أن الإعجاز في السُّور الثلاث يتجاوز المفردات إلى النَّظم السِّياقي الذي يربط العقيدة بالسلوك اليومي للمسلمين.

وأنهم اعتمدوا السياق لترجيح معاني ألفاظ القرآن الكريم وفهم مراد الله عز وجل، مشيرين إلى أن الإعجاز يكمن في ربط الآيات بعضها بعضاً بما يخدم المعنى السِّياقي، فأبرزوا الإعجاز البياني في سُوَر الإخلاص والفلق والنَّاس من خلال اختصار العقائد الكبرى في كلمات موجزة وعبارات بليغة تامة، كتوحيد الله عز وجل المطلق في سورة الإخلاص، والاستعاذة من الشرور الظاهرة والباطنة في سُورتَي الفلق والنَّاس.

٧. الخاتمة

ومما سبق يتجلَّى واضحاً من تحليل ومقارنة "الإعجاز البياني في السِّياق القرآني في ضوء التفاسير الأثرية واللغوية البلاغية لسُوَر الإخلاص والفلق والنَّاس" من خلال التفاسير الثلاثة للأئمة الطبري والزمخشري وابن كثير، وجود تكامل وتفاوت بينهما، على النَّحوْ التالي:

١. أولاً: بني الإمام ابن كثير تفسيره على مدرسة الإمام الطبري وهي مدرسة التفسير بالمأثور، فاعتمد بشكل أساس على تفسير "جامع البيان" للطبري، مع إعادة صياغته بعبارات أكثير سهوله وإيجازاً مع زيادة تحقيقه؛ حيث نقل الإمام ابن كثير كثيراً من الآثار عن الصحابة والتابعين من تفسير الإمام الطبري، لكنه تعقبه بحذف الطُّرق المتكررة للحديث الواحد، وبيان صحة أو ضعف الأحاديث والترجيح بين الأقوال التي ذكرها الإمام الطبري، وهو ما قل في تفسير الإمام الطبري.

كما استفاد الإمام ابن كثير من التفسير البياني للإمام الزمخشري في كتابه "الكشاف"، وذلك في بيانه لمفردات اللغة وبلاغة القرآن وإعرابه وتوجيه القراءات، لكنه لم يجعله مرجعاً في التفسير بالمأثور، وتعقب الإمام ابن كثير الانحرافات العَقدية في تفسير الإمام الزمخشري ورد عليها وانتصر لمذهب أهل السُّنة والجماعة، فكان الإمام ابن كثير خصماً للإمام الزمخشري في العقيدة وحليفاً له في اللغة والبيان.

٢. ثانياً: الإيجاز المعجز للقرآن الكريم؛ فقد أثبت هذا البحث أن سورة الإخلاص قدمت أركان التوحيد بلفظ موجز لا يمكن اختصاره.

٣. ثالثاً: التناسب الصوتي والدلالي؛ يوجد ارتباط دقيق بين الإيقاع الموسيقي في فواصل الآيات القرآنية والمعنى المقصود كالسكينة في سورة الإخلاص، والرهبة في سورة الفلق، والتخفي في سورة الناس.

٤. رابعاً: دقة السِّياق القرآني؛ وذلك مثل استخدام ألفاظ دقيقة كالصمد والنفاثات والخنَّاس، مما يعكس تفرد النَّظم القرآني وإعجازه البياني.

٥. خامساً: لا يستغني الباحث في دراسة الإعجاز البياني في السِّياق القرآني عن التفسير بالمأثور والتفسير اللغوي البلاغي؛ وذلك لأنها تقدم صورة متكاملة تجعل دراستها معاً ضرورة لفهم أسرار الإعجاز البياني في السِّياق القرآني.

Funding:

This research was not funded by any institution, foundation, or commercial entity. All expenses related to the study were managed by the authors.

Conflicts of Interest:

The authors declare that there are no conflicts of interest to disclose.

Acknowledgment:

The authors wish to acknowledge their institutions for their instrumental support and encouragement throughout the duration of this project.

References

[1] The Holy Qur'an.
[2] Al-Dhahabi, M. H., *Al-Tafsir wa al-Mufassirun* [The Exegesis and the Exegetes], 2nd ed. Cairo: Maktabat Wahbah, 2003.
[3] Al-Lahim, S. I., *Manhaj Ibn Kathir fi al-Tafsir* [Ibn Kathir's Methodology in Qur'anic Exegesis], 1st ed. Riyadh: Dar Al-Muslim for Publishing and Distribution, 1999.
[4] Al-Tabari, M. ibn Jarir, *Jami' al-Bayan fi Tafsir Ay al-Qur'an* [The Comprehensive Commentary on the Interpretation of the Qur'anic Verses], ed. A. A. Al-Turki. Cairo: Dar Hajar for Printing, Publishing and Distribution, 2001.
[5] Al-Zamakhshari, M. ibn Umar, *Al-Kashshaf 'an Haqa'iq Ghawamid al-Tanzil wa 'Uyun al-Aqawil fi Wujuh al-Ta'wil* [The Revealer of the Truths of Revelation and the Sources of Interpretive Opinions], ed. A. A. Al-Mahdi. Beirut: Dar Al-Kitab Al-Arabi, 1997.
[6] Ibn Kathir, I. ibn Umar, *Tafsir al-Qur'an al-'Azim* [Exegesis of the Glorious Qur'an], ed. by a group of researchers. Cairo: Qurtuba Foundation and Maktabat Awlad Al-Sheikh, 2000.

المراجع

[١] القرآن الكريم.
[٢] الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون. (ط.2). مكتبة وهبه، ٢٠٠٣.
[٣] اللاحم، سليمان بن إبراهيم، منهج ابن كثير في التفسير. (ط.١). دار المسلم للنشر والتوزيع،١٩٩٩.
[٤] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير آي القرآن. (عبد الله بن عبد المحسن التركي، محقق). دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١.
[٥] الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. (عبد الرزاق المهدي، محقق). دار الكتاب العربي، ١٩٩٧.
[٦] ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم. (مجموعة من الباحثين، المحققون). مؤسسة قرطبة؛ ومكتبة أولاد الشيخ، ٢٠٠٠.